نظرة المستشرقين إلى الشعر القديم

أ.د باقي محمد

إذا تتبعنا المستشرقون في تناولهم لشعرنا العربي القديم فمن جهتهم أنهم نظروا إلى شعرنا نظرة قواعدية حاولوا فيها تحليلا هذا الشعر بنظرة عقلانية على حسب رأيهم ،وهذه النظرة العقلانية التي اصطنعوها فهم يريدون أن يؤكدوا أن العقل هو الانتقال من المقدمات إلى النتائج التي تترتب عليها ،ومن وسيلة إلى غاية ،فالعقل و التحليل في نظرهم هو مجال الاستنباط من شاهد محسوس إلى واقع اتجه إلى البحث في مكنونات تراثنا العربي و البحث في جذوره و هو في مجال التجربة الانتقال من معلوم إلى مجهول و من ظاهر إلى خفي ومن هنا نستطيع أن نقول أن المستشرقين الألمان قد تميزوا بهذه الوقفة في دراستهم لتراثنا العربي ،فأكدوا أن بعض الرواة هم الذين نظموا بعض القصائد الجاهلية و نسبوها إلى هؤلاء الشعراء الغير الموجودين في الواقع أصلا و هذا من أجل بلوغ أهداف عدة منها على سبيل المثال :

- تحقيق منافع شخصية و سرتسجيل الأخبار التاريخية و تزينها .

"ولم تكن للمنفعة الشخصية هي الدوافع الوحيد لهذا الصنيع ،بل أراد بعض الرواة من ذلك مجرد إنعاش أخباره التاريخية بقطع شعرية و تزينها فوضعها على لسان الأشخاص المذكورين في أخباره،كما أن بعض رواة الشعر لم يقوموا بلإفراء و إقحام بعض أشعارهم التي نظموا في قصائد صحيحة و اعتقدوا أن أبياتهم هذه جديرة بأن تحمل اسم شاعر قديم "[13]

ومن المتوقع أن يختلف مستشرق مع آخر في نظرتهما لنص واحد ،وهذا ضمن استخدام قرا ءات مختلفة و لهذا لا سبيل لإيجاد قراءة موضوعية لأي نص كوصف نقدي لا نص كجهور ،وسيظل نص الجاهلي في نظومها قابلا لتفسيرات مختلفة و متعددة.

فهذا المستشرق (كرنكوف) اختلف بعض الشيء عن زملائه المستشرقين حيث يرى الشعر العربي القديم قيّد ببعض الكتابات ،وهناك أدلة كما قال صريحة توحي بوجود بعض الكتابات .

"إن كثيرا من الشعراء كانوا رواة الشعراء أقدم منهم وربما نستطيع أن نظيف أنهم كانوا تلاميذهم في هذا الفن،ومع فن الكتابة كان التلميذ إن كان موهوبا ،يحصل فن الشعر و ربما كان هذا هو الذي يفسر إلى حد بعيد الاتجاه النمطي بالتفكير ،بما فيه الشبهات لنفس الموضوعات "[14]

والحقيقة نذكر أن الدراسات الألمانية للشعر الجاهلي نظرت بمنظار يختلف بشيء من الدقة الموضوعية والعقلانية عن الدراسات الأخرى التي كانت تنظر إلى الشعر الجاهلي على أنه شعر مفكك و غير مترابط إن تخلخل تركيب القصائد العربية ساعد على سقوط بعض الأبيات والمواضيع أو التغير في ترتيبها ،فلو لم يكن ترتيب الأجزاء إعتباطي لو لم يكن بناؤها مفكك كما يعتقد الناس عادة ،فإن الشكل الحالي للقصائد حيث يعوز على خيط الاعتداد به في الترتيب سيكون أكثر إحكاما و رسوخا "[15]

وهناك أسئلة كثيرة تمتد و تتحدد في أذهاننا والتي لا بد أن تثير محاولين الوصول إلى قرار الحقيقة و هل المستشرقون أنصفوا حضارتنا العربية وأدبنا العربي القديم و خاصة الشعر منه إن الإجابة على هذا السؤال يؤدي من شك إلى فضاء من التوتر لأن تمركز وجهة النظر السائدة لدى أغلب العرب في دراستهم للمستشرقين ،ولا أسعى هنا لأخذ تصنيف مسبقا لأنه لا أحد يمكن التحكم في إنصاف المستشرقين لتراثنا إلا بعد أن يقوم بدراسة و تحليل هذه الدراسات التي قام بها المستشرقون خير قيام ومن بين هؤلاء نجد المستشرقة زيغريد هونكة ،فقد قامت بمجهودات جبارة و عظيمة في نشر التراث العربي ،وترجمة و تنقيحه ،فقد أكدت أ ن العرب حملوا لواء الحضارات القديمة و لم يكونوا همجيين و إنما كانوا أصحاب حضارة و أبدعوا في كل مجالات العلم والفكر و أكدت أن الأدب العربي أثر تأثيرا كبيرا في الأدب الأوربية .

وهكذا لعبث هذه المستشرقة دورا كبيرا في تشكيل هويات الحضارة العربية بكل أنواعها من أدب وفلسفة و رياضيات و غيرها من العلوم المختلفة انعكست هذه العلوم على الحضارات الأخرى ،وأثرت فيها تأثيرا قويا ونستطيع أن نؤكد أنا ساهمت بآرائها في الحضارة العربية والأدب العربي،و ألقيت أضواء جديدة على الحضارة العربية الإسلامية ،وقد تحولت أرائها في الأدب العربي و الحضارة العربية الإسلامية

إلى خصوصيات في ثقافتنا العربية المعاصرة ومن بين المنصفين للحضارة العربية و الأدب العربي و تاريخية ونجد كارل برو لمان 1865-1956 هو مستشرق ألماني معروف حاول تقديم إجابات عقلانية حول الشعر الجاهلي و حاول دراسة الشعر الجاهلي من ناحيتي الاختلاف و التنوع بأداة جديدة مبنية على طريقة الابتكار والتحليل و الإس تبصار و في هذا السياق فقد صنف بالألمانية كتابة المشهور تاريخ الأدب العربي ،وترجم هذا للكتاب اللغة العربية ،ويعد هذا الكتاب كمرجع أساسي و شامل بالتنوع في دراسة الأدب العربي و الشعر بصفة خاصة تتجسد فيه توفر إمكانيات أوسع و أسهل و أعمق في هذه الدراسة التي اعتمدت على التحليل والموضوعية العلمية ،وقد حاول في هذا الكتاب ترتيب قائمة الشعراء بطريقة منطقية و فق إستراتجية العلم والمعرفة ،وهذا الإمتلاكه أدوات المعرفة، واستعراضه الخطاب التفاعل المعرفي ،ذاكرا من خلال هذا المؤلف أسماء الأدباء العرب من كتاب و شعراء وعلماء وفلاسفة ،فهو يذكر أسماء المصنفات و المؤلفات العربية في مختلف العلوم والمعارف بطريقة مممنهجة و علمية .

ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي تساعد الباحثين على مختلف أصنافهم في معرفة أماكن المصادر و المراجع التي تهم في مختلف أبحاثهم [16]. ومن بين الموضوعات التي إشتغل بها المستشرقون قصة الخيال في الشعر الجاهلي و هي من القضايا الرئيسية و التي أعطوها حقها بالدراسة و التحليل والعقلانية في طرحها لهذه القضية التي تتجه نحو الأفكار المجردة و تنظمها و تدققها في إطار معرفي و في ترتيب منهجي لتضع الأعم منها فوق الأخص و قد تجلى هذا المنحى العقلي الخالص في دراستهم للخيال فيالشعر الجاهلي مرتبطين أهم الارتباط بالمنهج العلمي ،فالخيال عندهم لم ينطلق من عدم و إنما تجسد في رد الظواهر الخيالية على أسبابها الحقيقية [17]،فهذا المستشرق(هاينريشر) عالج قضية الخيال مركزا تركيزا أساسيا على منهج التفكير بقول (هاينريشر) نقلا عن محمد زكي عشماوي "لا ينبغي أن تنظر في القصيدة من حيث هي شيء كامل ،لا من حيث هي أبيات م ستقلة كما ينبغي الشاعر أن يميز بين جوانب موضوع القصيدة والظلام في نفسه ،كذلك ينبغي للشاعر أن يميز بين جوانب القصيدة و مايستلزمه على جانب من الخيال والتفكير [18] "،وقد أكد بعض الدارسين العرب على أهمية الخيال في الشعر الجاهلي و ليست أدري هل

تأثروا بالدراسات الإستشراقية والتي عالجت هذا الموضوع بالتفصيل أم تأثروا في اتجاهات أخرى و من بين المستشرقين الذين أكدوا أن الخيال في شعر الجاهلي وظف في شعرهم و هذا نظر للرؤى و المواقف المختلفة التي كان يعيش فيها الشاعر الجاهلي .

"هل عاش شاعر مناظر الغزل والحرب التي عرضها حقيقة،و هل صدقت أوصاف الجمل التي عرضها على الجمال كلها فعلا "[19] وقد شكك هذا المستشرق حتى في بعض الأمكان الذي ذكرها الشعراء الجاهليون في شعره ،ونحن نعرف أن هناك علاقة متينة بين الشاعر و هذه الأماكن المذكورة في شعره و يمكن اعتبار هذه الأماكن البؤرة الأساسية لنص الشعري و لهذا فإن عناصر النص مرتبطة بها ارتباطا وثيقا إلى درجة كبيرة ،فعلاقة الشاعر بهذه الأماكن التي لا يمكن إنكارها هي علاقة ذات دلالة خاصة مرتبطة بالنص[20].

"وحتى حين أقف من هذه التحويرات لأسماء الأماكن موقف المتشكك ،فإني أريد مع ذلك أن افترض أن بعض أسماء الأماكن لم تتخير من الوزن و القافية " فإستخدام الأماكن لها مدلولات عميقة في نفسين الشاعر لأن عبق المكان بقي دائما ماثلا في ذهن الشاعر الجاهلي و الذي لا يمكن إنكاره بأي حال من الأحوال ،وظل دائما هذه المكان مسيطرا على شعوره ،فحياة الشاعر تقوم أساسا على هذه الجوانب ،"حيث أن العرف قد قيد الشاعر بقوة داخل إمكانية تصوير ما عايشة حقا وأخيرا العرف الشاعر على أن يصف الأشياء على نحو ما تطلبت ،وهكذا وجب على الشاعر أن ي بدي حزنه عند رؤية أثار الحبيبة حتى إن لم تشعربه "[21].

وهكذا اختلفت مواقف المستشرقين حول قضية الخيال في الشعر الجاهلي فكل منهم نظرا إلى الخيال عند الشعراء الجاهلين في إطار الخاص و ارتبط هذا الإطار حول قضية الخيال ،وهذا من خلال ربط الشاعر و الطبيعة

و تكثيف الخيال في كل مجريات القصائد الجاهلية ويمكن أ ن نعتبر الخيال هي البؤرة الأساسي ة للنص الشعري ولهذا فإن عناصر النص مرتبطة ارتباطا وثيقا بالخيال وتدور في فلكه ،وإن كان بعض

المستشرقين قد أنكروا خاصة الخيال في الشعر العربي القديم ،فماذا يمكننا أن نقول حول حديث الشعراء عن الناقة و الذئب،و الخيل فهذا بطبيعة الحال شكل التجربة التخيلية التي كان بها الشاعر الجاهلي من داخله و ربما عبر عنها تغييرا صدقا في شعره .

وهذا الخيال الذي شكل فضاء متميزا قادهم فواقع الأمر على استخدام الجوانب الأسطورية الرمزية في شعرهم محاولين الكشف عن معارف متعددة و مختلفة.

الإحالات

1-يوهان فوكا ،تاريخ حركة الإستشراق ،الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين ،عمر لطفي العالم ،دار المدار الإسلامي ،بيرون الطبعة الثانية 2001.،

2-كارل بووكلمان :تاريخ الأدب العربي ترجمة عبد الحليم النجار ،دار المعارف ،القاهرة،ط 5،الجزء الأول .،1981

3-تيودرنولكه،من تاريخ و نقد الشعر القديم ضمن دراسات عبد الرحمن بدوي ،دار العلم للملايين ،بيروت، ط 1 .،1979

4-عبد الرحمن يدوي ،دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ،دار العلم للملايين ،بيروت ،ط 1،.،1979

5-من تاريخ و نقد الشعر القديم ،ط1،بيروت ،ص22

6-فلهم إلفرد ،ملاحظات على صحة القصائد القديمة ،ضمن دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي،دار العلم للملايين ،ط 1،بيروت ،1979 ،ص31

6- فؤاد سركين ،تاريخ التراث العربي ،ج1 مع ترجمة محمد فهمي حجازي ،جامعة الإمام بن سعود الإسلامية ،1991،دط.

7-تيدور نولدلكه ،من تاريخ الشعر العربي القديم ،ضمن دراسات عبد الرحمن بدوي ،دار العلم للملايين ،بيروت ،ط 1،ص.21

10-المرجع السابق ،ص20

11-تيدور نولدلكه:من تاريخ الشعر العربي القديم ،ص 30

12- مرجع سابق :فلهم الفرد : ملاحظات خاصة القصائد القديمة ،ص84

13-فلهم الفرد ،مرجع سابق : ملاحظات حول صحة القصائد العربية ،ص85

14- تيدورنورلدكه ،مرجه سابق ،ص27

15-مرجع سابق عبد الرحمن بدوي ،دراسات حول صحة الشعر الجاهلي ،ص304

16- تيدور نولدكله،من تاريخ الشعر العربي القديم ،ص23

17-الملتقى السادس للتعريف على الفكر الإسلامي ،1972،ص428

18-كارل بوكلمان ،تاريخ الأدب العربي ،دار المعارف ،مصر ،مج3،ص165

19-محمد زكي عشماوي: دراسات في النقد الأدبي المعاصر ،دار الشروق ،ط1،1994،ص.152

20-إيفالد فاغنر،الشعر العربي القديم ،ترجمة و تعليق د:سعيد بحيري ،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ،القاهرة، 2008،ص.282

21-المرجع نفسه ،ص284.